أثر نهج البلاغة في التفسير

تأليف
الدكتور نجم الفحّام

المبحث الأوّل
الحاجة إلى التفسير بين مدرسة أهل البيت ـ ع ـ ومدرسة الصحابة ـ رض ـ

هناك اتجاه في الأمة يرى عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم ، لان النص القرآني أكثر آياته هو المتشابهات ، وبالتالي الوقوع في الزيغ والفتنة عند التعاطي مع النص القرآني تفسيراً وتحليلاً. وعليه فان فهم القرآن أمر يستحيل الوصول إليه من قبل الأمة إلاّ من خلال النبي والأئمة ـ صلوات الله عليهم ـ لأنهم الراسخون في العلم والذين يعلمون تأويل القرآن الكريم مستندين في ذلك إلى بعض آيات القرآن الكريم والأحاديث المروية عن النبي وأهل بيته ـ صلوات الله عليهم أجمعين.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[١].

والآية الكريمة وإن لم تحدد هذه المتشابهات التي يستند إليها أصحاب هذا الرأي إلا أنهمّ قد يجدوه في كثير من الروايات التي تذهب إلى أن المتشابهات هو الحروف المقطعة النازلة في أوائل السور مثل: كهيعص، و حم، و آلم ... أو العكس أن هذه الحروف هي المحكمات والمتشابهات غيرها وبالتالي فان المتشابه في القرآن يستغرق معظم آياته ، والمتشابه كذلك هو المجمل ، والآيات المنسوخة التي نؤمن بها ولا نعمل بها وهو المروي عن ابن عباس وابن مسعود وبعض الصحابة ، ومنه كذلك ما يحتاج في معرفته إلى تأمل وتدبّر ، والمتشابه عندهم مالا سبيل الى العلم به كوقت الساعة ونحوه ، والمتشابهات ماعدا آيات الأحكام ؛ ونحن نعلم أنّ آيات الأحكام لا تتجاوز الخمسمائة آية [٢] ان لم تكن أقل ـ ومن المتشابه لديهم ما احتمل من التأويل أوجهاً كثيرة ، ومنه ما تشابهت ألفاظهُ من قصص الأنبياء مع أممهم بالتكرار في سور متعددة ، ومنه آيات الصفات خاصة أعم من صفات الله سبحانه كالعليم والقدير والحكيم والخبير ، وصفات أنبيائه كقوله تعالى في عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾[٣] ، والمتشابه مالا سبيل للعقل إليه ، ومنه ما اختلف في تأويله [٤] ، ومنه ما أريد به خلاف ظاهره ...[٥].

---

[١] آل عمران : ٧.
[٢] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٤ / ٣٥.
[٣] النساء: ١٧١.
[٤] المراد به المعنى المرادف للتفسير.
[٥] ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٦٨ وما بعدها.

ولكي لا نقع في الزيغ ـ على وفق هذه الرؤية ـ علينا الوقوف عند ما قاله الراسخون في العلم لأنهم هم الذين يعلمون تأويله ، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ، أنه قال: ((فرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أفضل الراسخين ، قد علمه الله عزّ وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل ، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله ، وأوصياؤهُ من بعده يعلمونه كلّهُ ... والقرآن خاص وعام ، ومحكم ومتشابه ، وناسخ ومنسوخ ، فالراسخون في العلم يعلمونه))[١].

مستندهم في ذلك أنّ أهل البيت عليهم السلام عدل الكتاب[٢] . وعدل الشيء لابد ان يكون مساوياً له وهذا الأمر باق لهم في كل عصر ومصر وانهما لن يفترقا حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. بل إن عندهم ـ عليهم السلام ـ علم التوراة والإنجيل و الزبور ، وبيان ما في الألواح.وإنهم هم الذين يعلمون ظاهر القرآن وباطنه وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن الكريم. وان للقرآن قيِّمٌ لابدّ من الرجوع اليه. وهم خزّان وحي الله و تراجمة وحيه. وقد آتاهم الله علم التفسير من أوله الى آخره.

عن منصور بن حازم قال قلت لأبي عبد الله ـ عليه السلام ـ : ((... ان من عرف أن له ربّاً ، فينبغي له ان يعرف انَّ لذلك الربِّ رضاً وسخطاً ، وانه لايعرف رضاه وسخطه الاّ بوحيٍ أو رسولٍ ، فمن لم يأتهِ الوحي فقد ينبغي له ان يطلب الرسل ، فإذا لقيهم عرف أنهم الحجة وان لهم الطاعة المفترضة. وقُلتُ للناس : تعلمون أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان هو الحجة من الله على خلقه ؟ قالوا : بلى. قلتُ: فحين مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من كان الحجة على خلقه ؟ فقالوا : القرآن. فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجئ و القدريُّ والزنديق الذي لا يؤمن به حتى يغلب الرجال بخصومته ، فعرفت أنّ القرآن لا يكون حجة إلاّ بقيم ، فما قال فيه من شيء كان حقاً ، فقلتُ لهم : من قيم القرآن ؟ قالوا : ابن مسعود قد كان يعلم ، وعمر يعلم وحذيفة يعلمُ ، قلتُ : كلّهُ ؟ قالوا : لا ، فلم أجد أحداً يقالُ : إنه يعرف ذلك كلّهُ إلاّ علياً عليه السلام. وإذا كان الشيء بين القوم فقال هذا : لا أدري ، وقال هذا : لا أدري ، وقال هذا : أنا أدري ، فأشهد أن علياً عليه السلام كان قيمُ القرآن ، وكانت طاعته مفترضةً وكان

---

[١] الكافي، ثقة الاسلام: الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، ط ١، منشورات الفجر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ، ج ١ ص ١٢٧.

[٢] وهذا ماجاء في حديث الثقلين من معنى عدم الافتراق والحجية: ((فالحجية لهما معاً فللقرآن الدلالة على معانيه والكشف عن: المعارف الإلهية، ولأهل البيت الدلالة على الطريق وهداية الناس الى أغراضه ومقاصده)). الميزان: ٣ / ٧٦.

الحجة على الناس بعد رسول الله ـ ﷺ ـ وان ما قال في القرآن فهو حقٌّ. فقال: رحمك الله))[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ((إن الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه، وحجته في أرضه وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا))[٤].

ـ قال الباقر عليه السلام: ((نحن خُزَّانُ علم الله ونحن تراجمة وحي الله، ونحنُ الحجّة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض))[٥].

ومعنى هذا ان عندهم تفسير القرآن وأحكامه، وانهم لا يسألون عن شيءٍ فيقولون لا ندري لأنهم الحجة على عباده وعندهم ظاهر القرآن وباطنه لانهم هم الأوصياء بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي حديث بُرِيْهٍ، قال ابو عبد الله عليه السلام: ((... إن الله لا يجعل حجة في أرضه يسأل عن شيءٍ فيقول لا أدري))[١].

وروي عن ابي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: ((إنَّ من علم ما أوتينا تفسير القرآن واحكامه، وعلم تغيير الزمان وحدثانهِ ...))[٢].

ـ قال الصادق عليه السلام: ((والله إني لأعلم كتاب الله من أوّله الى آخره كأنه في كفّي، فيه خبر ما كان، وخبر ما هو كائن، قال الله عزّ وجل: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٣]))[٤].

ـ وقال ابو جعفر الباقر: ((ما يستطيع أحدٌ أن يدعي أنَّ عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء))[٥].

وكذلك يستدلون بما روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((سلوني عمّا شئتم فلا تسألوني عن شيءٍ الاّ أنبأتكم به))[٦].

وقد سأل رجل من أهل الكوفة أبا جعفر عليه السلام عن قول أمير المؤمنين هذا فأجابه الإمام قائلاً: ((إنهُ ليس أحدٌ عنده علمُ شيءٍ إلاّ خرج من عند أمير المؤمنين عليه السلام، فليذهب الناس حيث شاؤوا، فو الله ليس الأمر إلاّ من هاهنا، وأشار بيده الى بيته))[٧]

---

(٣) الكافي: ١ / ٩٧ ـ ٩٨.
(٤) المصدر نفسه: ١ / ١١٢.
(٥) المصدر نفسه: ١ / ١١٣.
(١) الكافي: ١ / ١٣٥.
(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٣٦.
(٣) النحل: ٨٩.
(٤) الكافي: ١ / ١٣٦.
(٥) المصدر نفسه: ١ / ١٣٦.
(٦) المصدر نفسه: ١ / ٢٥٠ ـ ٢٥١.
(٧) المصدر نفسه: ١ / ٢٥١.

وهذا الاتجاه يرى انَّ للقرآن أهلاً آتاهم الله علمه فلا يرغب عنهم ولا عن مسألتهم الى سواهم. لانّ عدم مسألتهم يوقع في الهوى والانحراف عن جادة الحق والوقوع في التفسير بالرأي المهني عنه، وليس لأحدٍ أنْ يأخذ بهواه و لا رأيه ولا مقاييسه.

ـ عن إسماعيل بن مخلدٍ السرَّاج ان الإمام الصادق عليه السلام كتب إلى أصحابه رسالة قال فيها: ((... قد أنزل الله القرآن وجعل فيه تبيان كلِّ شيءٍ، وجعل للقرآن ولتعلُّم القرآن أهلاً، لا يسع أهل علم القرآن الذين آتاهم الله علمهُ، ان يأخذوا فيه بهوىً ولا رأي ولا مقاييس، أغناهم الله عن ذلك بما آتاهم من علمه، وخصَّهم به، ووضعه عندهم كرامةً من الله أكرمهم بها، وهم أهل الذكر الذين أمر الله هذه الامة بسؤالهم[8]، وهم الذين من سألهم ـ وقد سبق في علم الله انْ يصدِّقهم و يتَّبع أثرهم ـ أرشدُوْهُ وأعطوهُ من علم القرآن ما يهتدي به إلى الله بإذنه، والى جميع سُبل الحق ...))[9].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: ((إنما الوقوف علينا في الحلال والحرام ...))[10].

لاشك ان التفسير بالرأي منهيٌّ عنه. فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: ((من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار))[1].

والذي يبدو للباحث ان أصحاب هذا الاتجاه انما ذهبوا الى ما ذهبوا إليه لكثرة ما ورد من النهي عن التفسير بالرأي وما شاب عملية التفسير من الوضع والدس و الإسرائيليات والكذب على رسول الله ـ ﷺ ـ والتحذير من ذلك منذ بواكير الدعوة الإسلامية، فقد جاء شيءٌ من هذا التحذيرعلى لسان صاحب الرسالة ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نفسه. فقد كذب عليه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ على عهده حتى قام خطيباً فقال: ((يا أيها الناس قد كثُرت عليَّ الكذَّابةُ، فمن كذب عليَّ متعمداً فلَيتبوَّأْ مقعده من النار))[2].

ثمَّ كُذِب عليه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من بعده كما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((... وانما أتاكم الحديث من اربعةٍ ليس لهم خامس: رجلٌ منافقٌ يظهر الإيمان، متصنّعٌ بالإسلام لا يتأثَّم ولا يتحرج انْ يكذب على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ متعمداً ...))[3].

---

[8] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾.
[9] الكافي: ٨ / ٦ ـ ٧.
[10] المصدر نفسه: ١ / ١٦٠.

[1] سنن الترمذي، سليمان بن الاشعب السجستاني، مطبعة البابي، القاهرة، ١٩٢٧، ج٢ ص١٥٧ ؛ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، ط٣، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، ج٢٧ ص١٨٩
[2] الكافي: ١ / ٣٧.
[3] المصدر نفسه: ١ / ٣٧.

وكان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول : ((أيها الناس : ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فانا قلته ، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله))[٤].

عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : ((من فسَّر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب))[٥]. وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : ((قال الله جلَّ جلاله : ما آمن بي من فسر برأيه كلامي))[٦]. وعن الإمام الباقر عليه السلام : ((وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن))[٧]. وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : ((ليس شيء أبعد من عقول الرجال من القرآن))[٨].

يقول الشيخ الطوسي : ((واعلم أنّ الرواية ظاهرة في أخبار أصحابنا بأن تفسير القرآن لا يجوز إلاّ بالأثر الصحيح عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وعن الأئمة عليهم السلام الذين قولهم حجّة كقول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وان القول فيه بالرأي لا يجوز. وروى العامة ذلك عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه قال : (من فسر القرآن برأيه وأصاب الحق فقد أخطا) وكره جماعة من التابعين وفقهاء المدينة القول في القرآن بالرأي : كسعيد بن المسيب وعبيدة السلماني ، ونافع ، ومحمد بن القاسم ، وسلم بن عبد الله ، وغيرهم. وروي عن عائشة أنها قالت : لم يكن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يفسّر القرآن إلاّ بعد أنْ يأتي به جبرائيل عليه السلام))[٩].

عن الصادق عليه السلام : ((من فسّر القرآن برأيه ، إنْ أصاب لم يؤجر ، وإنْ أخطأ خرَّ أبعد من السماء))[١]. ((من حكم برأيه بين إثنين فقد كفر ، ومنْ فسّر أيةً من كتاب الله فقد كفر))[٢].

وفي الحديث : ((من قال في القرآن بغير ما علم ، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار))[٣] وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : ((أكثر ما أخاف على أمتي من بعدي رجل يتأوّل القرآن يضعه على غير مواضعه))[٤].

---

[٤] المصدر نفسه: ١ / ٤١.
[٥] وسائل الشيعة: ٢٧ / ١٩٠.
[٦] المصدر نفسه: ٢٧ / ١٨٦.
[٧] المصدر نفسه: ٢٧ / ١٩٢.
[٨] المصدر نفسه: ٢٧ / ٢٠٣.
[٩] تفسير التبيان: ٤/١ ؛ بحار الانوار: ٨٩ / ٧٨.
[١] وسائل الشيعة: ٢٧ / ٢٠٢.
[٢] المصدر نفسه: ٢٧ / ٢٠٣.
[٣] بحار الانوار: ٨٩ / ٧٨.
[٤] المصدر نفسه: ٨٩ / ٧٨.

قال ابن تيمية : ((فمن قال بالقرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به ، وسلك غير ما أمر به. فلو أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه ! كمن حكم بين الناس على جهلٍ فهو في النار وانْ وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخفّ جرماً ممن أخطأ ...))[٥]. والتفسير بمجرد الرأي عنده حرام[٦].

وقد خلط الذهبي بين التفسير بالرأي والاجتهاد الأصولي ؛ لانّ التفسير بالرأي ، هو التفسير بمجرد الاستحسان ، والترجيح بحسب الظن والميل النفسي الموافق للهوى بغير علم وبلا دليل ولمجرد انّ نفسي تهوى أنْ تحمَّل الآية هذا المعنى أو ذاك. بينما الاجتهاد يعني الاستنباط القائم على أساس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. إذ : ((التفسير بالرأي غير الاستظهار من الآيات المباركة بالقرائن))[٧].

ولعلّ هذا الخلط هو الذي أوقعه فيما ذهب إليه من أنّ التفسير بالرأي قسمان : قسم جائزممدوح ، وآخر مذموم غير جائز.مما دفعه الى الاسهاب في ذكر الادلة على ما يذهب إليه من معنى عند ذكره لموقف العلماء من التفسير بالرأي.

يقول الذهبي : ((اختلف العلماء ... في جواز تفسير القرآن بالرأي ، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين : فقوم تشدّدوا في ذلك فلم يجرءوا على تفسير شيءٍ من القرآن ولم يُبيحوه لغيرهم ، وقالوا : لا يجوز لأحدٍ تفسير شيءٍ من القرآن ، وإنْ كان عالماً أديباً متّسعاً في معرفة الأدلة ، والفقه ، والنحو ، والأخبار والآثار ، وإنما له أنْ ينتهي الى ما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم ، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين. وقوم كان موقفهم على العكس من ذلك ، فلم يروا بأساً من أنْ يفسروا القرآن باجتهادهم ورأوا انَّ من كان ذا أدبٍ وسيع فموسع له أنْ يفسر القرآن برأيه واجتهاده. والفريقان على طرفي نقيض فيما يبدو ، وكلٌ يعزّز رأيه ويقوّيه بالادلّة والبراهين))[٨].

وعليه فان المسلمين السنة كإخوانهم الشيعة لم يخلُ واقعهم أيضاً من هذا الاتجاه الذي يرى عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم من قبل الأمة إلاّ من خلال ما أُثر عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من طريق الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وتابعيهم بإحسان.

---

[٥] التفسير الكامل، مقدمة في اصول التفسير، ابن تيمية، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٣ ـ ٢٠٠٢م، ج١ ص٢٤.
[٦] ينظر: المصدر نفسه: ١ / ٢٤.
[٧] مواهب الرحمن، عبد الأعلى السبزواري، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣م، ج١ ص٦.
[٨] التفسير والمفسرون: ٢٥٦/١ ـ ٢٥٧.

المبحث الثاني
عليّ ـ عليه السلام ـ يربّي الأُمّة على الاتّجاه إلى القرآن

لاشكّ أنَّ كثيراً من الناس لا يستطيع أنْ يستوعب معاني كثيرٍ من الآيات ، ولعل بعض هؤلاء ، ممن كانوا معاصرين لنزول الوحي[1] . فكيف بمن جاء بعدهم مع تعدد دلالات النص القرآني و ما حفل به من المتشابه ، والمشكل ، والمطلق ، والجمل ، والعام ...

وإذا كان النص القرآني خطاباً للناس كافة[2] في كل زمان ومكان على مرِّ العصور وكرِّ الدهور وتعدّد الأجيال حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ، فستكون الحاجة للتفسير أكثر كلما ابتعدنا عن عصر نزول الوحي وملابساته والظروف المحيطة بنزول الآيات وقرائن الأحوال وعدم الإحاطة بالمعاني اللغوية المتداولة وقت نزول الوحي.

فنحن اليوم نحتاج إلى ما يحتاج إليه من عاصر نزول الوحي وزيادة ، وهذه الزيادة يحتمها علينا النص القرآني الذي يتميز بالجدة في كل زمان فقد جاء في الحديث الشريف : ((إنّ الله تبارك وتعالى لم يجعل القرآن لزمانٍ دون زمان ، ولناسٍ دون ناسٍ ، فهو في كل زمانٍ جديد))[3].

فـالقرآن الكريم جاء ليستفيد منه الناس كل الناس ، لأنه كما قال تعالى : ﴿ هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[4]. وهو تبيان لكل شيء ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[5]. وهو الكتاب المبين الذي نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين. قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾[6] ، ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾[7] ، ﴿ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[8].

---

(1) فقد قال ابو بكر: أي ارض تقلّني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في القرآن مالا أعلم. وفي رواية أخرى: إذا قلت في القرآن برأيي: أو بما لا أعلم. وذلك عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿ وفاكهة وابا ﴾. و قال عمر: قال الله: ﴿ وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً: وحدائق غُلباً وفاكهة و ابا ﴾ كل هذا قد علمناه، فما الأب ؟ ثمّ ضرب بيد ه، ثمّ قال: لعمرك إنّ هذا لهو التكلّف، واتبعوا مايتبيّن: لكم في هذا الكتاب ... وما يتبيّن فعليكم به، ومالا فدعوه. جامع البيان: ج١ ص٥٢، ج١٥ ص٦٧.

ومثله في الدر المنثور للسيوطي سئل ابو بكر عن قوله أبا فقال: أي سماء تظلني وأي ارض تقلني إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم : وقرأ عمر على المنبر ﴿ فأتينا فيها ... الى قوله ﴿ و ابا ﴾ قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب ؟ ثم رفع عصاً كانت بيد ه، فقال:. هذا لعمر الله هو التكلّف فما عليك أنْ لاتدري ماالابّ اتبعوا مابيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به ومالم تعرفوه فكلوه الى ربه. الدر. المنثور:: ج٨ ص٤٢١ ـ٤٢٢.

(2) قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨.]

(3) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ج٢ ص٢٨٠.

(4) آل عمران: ١٣٨

(5) النحل: ٨٩.

(6) المائدة: ١٥.

(7) يوسف: ١.

(8) النحل: ١٠٣.

ومؤدّى هذه الآيات الكريمات أنّ فهم القرآن الكريم ليس بمقصورٍ على جماعةٍ أو صنفٍ من الناس، على المفسرين من العلماء والفقهاء بحسب، وإنما جاء القرآن الكريم ليستفيد منه الجميع كما ألمح الى ذلك الحديث الشريف الآنف الذكر، لانّ القرآن الكريم نزل بلسان عربيٍّ أي باللغة العربية، والذين نزل بين ظهرانيهم هم عربٌ أقحاح، وكانوا أرباب الفصاحة وحذّاق البلاغة، فهم والحال هذه يمكنهم التعاطي مع القرآن والرجوع إليه مباشرةً.

وقد كان لهذه السمة أثرها الواضح في فهم القرآن الكريم في كثير من آياته البيّنات والمحكمات لمن كان على دراية باللغة العربية التي نزل بها النص الكريم ـ النص السماويُّ الأرقى ـ وما يحويه من دلالة وبلاغة، والتعاطي معه فهماً وتدبّراً.

فقد ((كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيخرّ له ساجداً لما عنده من رقة الإحساس ولطف الشعور ... أرأيت أهل جزيرة العرب، كيف انظووا إلى الإسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم من دقّة الفهم، التي كانت سبب الانجذاب الى الحق))[1].

ويمكن أنْ نرى هذا بوضوح في حال البنت الأعرابية التي فطنت لاشتمال الآية الكريمة الآتية على أمرين و نهيين وبشارتين.

يقول الأصمعي: ((سمعتُ بنتاً من الأعراب خماسية أو سداسية تنشد:

أستغفر الله لذنبي كلِّهِ   قتلتُ إنساناً بغير حلِّهِ
مثلُ غزالٍ ناعمٍ في دَلِّهِ   وانتصف الليلُ ولم أُصلِّهِ

فقلتُ لها: قاتلكِ الله ما أفصحكِ، فقالت: ويحكَ أَيُعَدُّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2] فجمع في آية واحدة بين أمرين و نهيين وبشارتين))[3].

ولكن مع دقّة الفهم هذه هناك الكثير من الدلالات والمعاني في النص القرآني لا يمكن استيعابها من قبل الناس من دون الرجوع إلى أهل الصناعة أو الاختصاص، بل هناك من المعاني ما لا يدركها أهل الاختصاص ولا يعرفها حتى العلماء، ويمكن عدّها وجهاً خامساً لما ذكره ابن عباس من انّ التفسير: ((على أربعة أوجه، وجهٌ تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحدٌ

---

[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط٢، دار الفكر، ج ١ ص ٢٨.
[2] القصص: ٧.
[3] تفسير المنار: ١ / ٢٨.

بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلاّ الله))[٤].

وهذا الوجه: هو ما لا يعلمه الاّ الراسخون في العلم وهم محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأهل بيته الطاهرون صلوات الله عليهم أجمعين.

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((ما جاء به عليٌّ عليه السلام آخذُ به و ما نهى عنه انتهي عنْهُ، جرى له من الفضل مثلُ ما جرى لمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، ولمحمدٍ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الفضل على جميع من خلق الله عزَّ وجلَّ، المتَعَقِّبُ عليه في شيءٍ من أحكامه كالمتَعَقِّب على الله وعلى رسوله. والرادّ عليه في صغيرةٍ أو كبيرة على حدِّ الشرك بالله، كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يؤتى إلاّ منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وبذلك جرت الأئمة عليهم السلام واحد بعد واحد ...))[٥].

ولكن هذا المعنى أو هذا الوجه لا يعني بالضرورة عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم كون أكثر آياته هو المتشابهات وبالتالي الوقوع في الزيغ والفتنة.

وعليه فان هذا القول لا يستقيم لأصحاب هذا الرأي وهو لا يستند إلى دليل، بل الآية المباركة: ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ ﴾[١] دليل يثبت خلاف ما ذهبوا إليه تماماً إذ الآية تدعو إلى تفسير القرآن الكريم وتعطي المفتاح والمنهجية الصحيحة في تناول المتشابه وذلك بالرجوع إلى المحكم، ولم تتطرق الآية المباركة إلى هذه المصاديق التي ذكروها للمتشابهات من بعيد أو قريب. وكذلك أقوال المعصومين عليهم السلام تدعو إلى ذلك.

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصفه لكتاب الله تعالى: ((... ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تُطفأُ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقدهُ وبحراً لا يُدْرَكُ قعرهُ، ومنهاجاً لا يُضلُّ نهجهُ، وشعاعاً لا يُظلِمُ ضوْءُهُ، وفُرْقاناً لا يخمدُ بُرْهانُهُ، وتبياناً لا تهْدمُ أركانهُ، وشفاءً لا تخشى أسقامه، وعزا لا تهزم أنصارُهُ، وحقّاً لا تخذل أعوانُهُ، فهو معدن الإيمان وبُحْبُوحَتُهُ، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدلِ وغدرانه، وأثافيُّ الإسلام وبنيانه، وأوديةُ الحق وغيطانهُ، وبحرٌ لا ينزفه المستنزفون وعيونٌ لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضلُّ نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكامٌ لا يجوزُ عنها القاصدون، جعله الله ريَّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجَّ لطُرقِ الصلحاء، ودواءً ليس بعده داءٌ، ونوراً ليس

---

(٤) جامع البيان: ١ / ٥٠.
(٥) الكافي: ١ / ١١٦.
(١) آل عمران: ٧.

معه ظلمةٌ ، وحبلاً وثيقاً عروتهُ ، ومعقلاً منيعاً ذروتُهُ ، وعزّاً لمن تولاهُ ، وسلماً لمن دخله ، وهدىً لمن ائتمَّ به ، وعذراً لمن انتحلهُ ، وبرهاناً لمن تكلّم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، وفلجاً لمن حاجَّ به ، وحاملاً لمن حمله ، ومطيَّةً لمن أعملهُ ، وآيةً لمن توسَّمَ ، وجُنَّةً لمن استَلأمَ ، وعلماً لمن وعى وحديثاً لمن روى وحكماً لمن قضى))[٢].

فكلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مُوجَّةٌ للناس كل الناس وليس لطبقة خاصّة من العلماء أو الفقهاء ، وعلى الأمة انْ تتولاه لتنال عزّها به وسلامتها وهداها ونجاتها من ضلالتها وضياعها. ولوكان تفسير القرآن منحصراً بأهل بيت النبوة عليهم السلام وليس لأحدٍ غيرهم أنْ يعرفه لما قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه ريَّاً لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاجَّ لطُرق الصلحاء. وانما خاطب الناس بأنه نور ليس معه ظلمةٌ وهدىً لهم أذا أتمُّوا به ، وكيف يمكن لهم ذلك اذا لم يعرفوا القرآن وما فيه من أمرٍ ونهيٍ. وكيف يكون لهم مطيةً وهم لا يعلمون ما فيه ولا يعملون به. وكيف يكون الناس حفظةً للقرآن فيما استحفظهم الله من كتابه واستودعهم من حقوقه ، وأنه تبيان لكل شيءٍ وهم لا يعلمون ولايعرفون من خلاله خير أعمالهم أو شرّها ، وكيف يمهّد الناس لأنفسهم وأقدامهم من زاد التقوى إذا لم يدركوا ما أحبه الله تعالى من الطاعة وما كرهه من المعصية.

يقول الإمام عليه السلام : ((... فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم مِنْ كتابه ، واستودعكم من حقوقه ، فإنَّ الله لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى ، ولم يدعكم في جهالةٍ ولا عمى ، قد سمّى آثاركم ، وعَلمَ أعمالكم ، وكتب آجالكم ، وانزل عليكم الكتاب تبياناً لكل شيءٍ ، وعمَّرَ فيكم نبيّهُ أزماناً ، حتى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضيَ لنفسه ، وانهى إليكم على لسانه محابَّهُ من الأعمال ومكارهه ، ونواهيه وأوامره ، وألقى إليكم المعذرة ، واتخذ عليكم الحجة ، وقدم إليكم بالوعيد ، وأنذركم بين يديْ عذابٍ شديد))[١].

بل إن الإمام عليه السلام يدعو الرجل الذي أتاه يسأله قائلاً : صِفْ لنا ربنا مثل ما نراه عياناً لنزداد له حُبَّاْ ، وبه معرفةً ، يدعوه الى النظر والتأمل بالقرآن ليستضيء بنور كتابه عزّ وجلَّ ، إذ يقول : ((.... فانظر أيها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمَّ به ، واستضئ بنور هدايته ...))[٢].

فالإمام عليه السلام يدعو إلى التدبر في القرآن الكريم وتعلمه لأنّه أحسن القصص

---

[٢] شرح نهج البلاغة، الجامع لخطب وحكم ورسائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، تأليف عزِّ الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق: الاستاذ: محمد أبي الفضل ابراهيم، ط ١، الدار اللبنانيَّة للنشر، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، الخطبة: ١٩٨.

[١] شرح نهج البلاغة، الخطبة: ٨٦.

[٢] المصدر نفسه، الخطبة: ٩٠.

وانفعها، يقول في خطبةٍ له عليه السلام يذكر فيها فرائض الإسلام: ((.... وتعلموا القرآن فانه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص ...))[٣].

والإمام عليه السلام يريد أنْ يربِّي الأمة على الاتجاه إلى القرآن الكريم واتخاذه مرجعاً للهداية ليعرفوا الرشد من خلاله وذلك بإطاعة أوامره، لانّ إطاعة الله رشدٌ إلى النجاة وانَّ الهدى هداه عزّ و جلّ وهذا الخطاب من الإمام عليه السلام موجه للناس كل الناس ليس لطبقة أوفئة دون أخرى ولا لمن عاصروا الإمام عليه السلام دون غيرهم. وهذا المعنى يرد قول القائلين بعدم فهم نصوص الكتاب العزيز من قبل الأمة. بل الإمام عليه السلام ينعى على الذين تركوا القرآن وراء ظهورهم وأصبحوا هم أئمة الكتاب وليس الكتاب أمامهم، وتمسَّكوا بالمنظر منه دون الجوهر فلم يقيموا محتوى القرآن وانما راحوا يذهّبون غلافه.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((... فتجلّى لهم سبحانه في كتابه... وليس ... سلعةٌ أبور من الكتاب إذا تلي حقَّ تلاوته، ولا أنفق منهُ إذا حُرِّف عن مواضعه ... فاجتمع القومُ على الفرقة، وافترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب، وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلاّ اسمه، ولا يعرفون إلاّ خَطَّهُ وزبْرَهُ ...))[٤].

ثمَّ يُبين الإمام علي عليه السلام انّ فهم الكتاب له مراتب ودرجات قد يتعذّر على عامة الأمة إدراكها وإنْ كان ظاهر القرآن حجة لانّ باطنه لا يعرفه كل أحدٍ لانّ: ((المتصدِّين لفهم معاني القرآن لا يصلون الى منتهاه، لانه غير متناهي المعاني، بل وفيها دلالة على انّ معاني القرآن لا تنقص أصلاً، كما لا تنضب العيون الجارية بالسقاية منها))[٥].

وقد أعطى الإمام عليه السلام النهج والمنهاج في التعامل مع الكتاب العزيز إذ يقول: ((... واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركهُ، و لن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضهُ، ولن تمسّكوا به حتى تعرفوا الذي نبذهُ. فالتمسوا ذلك من عند أهله ، فإنهم عيش العلم، وموت الجهل، هُمُ الذين يخبركُم حُكْمُهُم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرُهُم عن باطنهم، لا يخالفون الدين و لا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهدٌ صادق، وصامتٌ ناطقٌ))[١].

[٣] المصدر نفسه، الخطبة: ١٠٩.
[٤] المصدر نفسه، الخطبة: ١٤٧.
[٥] البيان في تفسير القرآن: ٢٤.

[١] شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٤٧.

وهذا منتهى الإيضاح والبيان في هذا الباب الذي أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك: ((لأنّ الحق الذي كلّف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن ...))[٢].

فالمراتب والدرجات التي يمكن تدبّرها والنظر فيها لابدّ وانْ يكون المكلّف غير معذورٍ في تركها أو ترك البحث فيها والتحليل لمضامينها، لانَّ القرآن الكريم ذمَّ الذين لا يتدبّرون القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[٣].

وعليه فالآيات القرآنية: ((تدعو الناس عامة من كافر أو مؤمنٍ ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه، إلى تعقّل القرآن وتأمله والتدبّر فيه، وخاصّة قوله تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، تدل دلالة واضحة على أنّ المعارف القرآنية يمكن أنْ ينالها الباحث بالتدبر والبحث ...))[٤].

وعليه فلكل إنسانٍ نصيبه في استمطار معاني النص الكريم كلٌّ بحسبهِ لانّ الناس يتفاوتون فيما بينهم في الفهم والإدراك والقابلية على التعاطي مع النص السماوي الأرقى قال تعالى: ﴿أنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾[٥]. وهذا الاختلاف والتفاوت أمرٌ طبيعيٌّ في غريزة الإنسان، يقول الغزالي: ((... وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم الاّ بعد تعب طويلٍ من المعلم، والى ذكيٍّ يفهم بأدنى رمزٍ وإشارة، والى كاملٍ تنبعث من نفسه حقائق الأمور، بدون التعليم كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴾[٦]... وانقسام الناس إلى من يتنبّه من نفسه ويفهم والى من لا يفهم الاّ بتنبيه وتعليم والى من لا ينفعه التعليم أيضاً، ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجّر بنفسه عيوناً والى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات والى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل))[٧].

---

(٢) إحياء علوم الدين، ابو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت:٥٠٥ هـ)، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ج١: ص٣٣٥.
(٣) النساء: ٨٢.
(٤) الميزان: ٥ / ٢٥٥.
(٥) الرعد: ١٧.
(٦) النور: ٣٥.
(٧) إحياء علوم الدين: ١ / ١٦٦.

أمّا المراتب والدرجات والمعارف القرآنية التي لا يمكن أنْ ينالها الباحث بالتدبر والبحث فطريقها ما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ردّها إلى سنة النبي وأئمة الهدى ـ صلوات الله عليهم ـ تأسِّياً بالراسخين في العلم الذين أغناهم ربّهم عن تقحّم ما خفي عليهم، لأنه: ((ما قال النبي ـ ﷺ ـ من شيء فهو في القرآن، وفيه أصله، قرب أو بَعُدَ، فهمه من فهمه، وعمِه عنه من عَمِه، قال الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] ...))[2].

يقول عليه السلام: ((... وما كلّفك الشيطان علمه، مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأئمة الهدى أثرُهُ، فكِل علمه إلى الله سبحانه، فإنّ ذلك منتهى حق الله عليك ...))[3].

وذلك لانّ أئمة الهدى هم عدل القرآن الذين قال فيهم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم: ((إني تارك فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر وهو كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما)). وفي رواية: ((إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبلٌ ممدود مابين السماء والأرض أو مابين السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض))[4].

يقول الغزالي: ((... ومنْ ظنَّ أنَّ عقل النبي ـ ﷺ ـ مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخسّ في نفسه من آحاد السوادية))[5].

وعلم عليٍّ عليه السلام علم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقد روى الحافظ أبو نعيم احمد بن عبد الله صاحب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أنَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: ((يا علي إنَّ الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي، وأُنزلت هذه الآية وتعيها أذنٌ واعية فأنت أذنٌ واعية لعلمي))[6].

ولذلك يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ((... ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطِق ولكن أُخبركم عنه، ألا إنَّ فيه عِلَمَ ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائِكم، ونَظْمَ ما بينكم))[7].

---

(1) الأنعام: ٣٨.
(2) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٢٩.
(3) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ٩١.
(4) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، طبع ونشر: دار الفكر العربي، ج ٥ ص ١٨٢، جامع الأصول: ١ /١٨٧.
(5) إحياء علوم الدين: ١ / ١٦٦.
(6) حلية الأولياء: ١ / ٦٧.
(7) شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٥٩.

ولكن هذا القول من الإمام عليه السلام لا يعني أنَّ الأمة لا تستطيع تفسير القرآن في كل مراتبه ودرجاته وإنما المراد أنَّ فهم محتوى القرآن كلّه لا يتيسّر إلاّ لمن خوطب به وهو النبي محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ومن جعلهم أحد الخليفتين بعده.

بل إنّ الإمام عليه السلام لا يرى موعظة للأمة مثل كتابها العزيز الذي آثرها الله عزّ و جلّ به دون الأمم السالفة إذ يقول: ((... فإنَّ الله سبحانه لم يعِظْ أحداً بمثل القرآن، فإنه حبل الله المتين، وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاءٌ غيرُهُ، مع أنه قد ذهب المتذكّرون، وبقي الناسون أو المتناسون ...))[1].

وكيف يأخذ الإنسان العضة والعبرة من القرآن الكريم إذا كان لا يفهم خطابات هذا الكتاب العزيز الذي أنزله الله تعالى هدىً للناس، والإمام إنما يريد شدَّ الأمة إلى القرآن لأنها لا غنى لها عن القرآن إذ هو الناصح الأمين والشافي لها من أدوائها والدليل إلى ربها.

يقول عليه السلام في خطبةٍ له يحذّر فيها من متابعة الهوى: ((... واعلموا انَّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشُّ، والهادي الذي لا يضِلُّ، والمحّدثُ الذي لا يكذبُ، وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلاّ قام عنه بزيادةٍ أو نقصان، زيادةٍ في هدىً، أو نقصانٍ من عمىً. واعلموا أنه ليس على أحدٍ بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنىً، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائِكم، فإنّ فيه شفاءٌ من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغيُّ والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبِّه، ولا تسألوا به خلْقه، إنه ما توجّه العبادُ الى الله تعالى بمثله. واعلموا أنه شافعٌ مشفّع، وقائلٌ مصدقٌ وأنه منْ شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صُدِّق عليه، فإنه ينادي منادٍ يوم القيامة: الا إنَّ كلَّ حارثٍ مبتلىً في حرثِهِ وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن. فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلّوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشُّوا فيه أهواءكم))[2].

ثمّ يذكر لنا الإمام عليه السلام أنموذجاً من هذه الأمة، قرؤوا القرآن وتدبروا ما فيه وفهموا وأدركوا مطالبه وما فيها من معارف سلكت بهم سبيل ربهم اللاحب فأحكموا وأطاعوا واتبعوا.

يقول متأوهاً عليهم: ((... أين إخواني الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق ! أين عمّار! وأين ابن التَّيِّهان[3] ! وأين ذو الشهادتين ! وأين نُظراؤهم من إخوانهم ... أوْهِ على إخواني الذين قرؤوا القرآن فأحكموهُ، وتدبّروا الغرض فأقاموه ! أحيوا السنّة، وأماتوا البدعة، دُعُوا

---

[1] شرح نهج البلاغة، الخطبة: ١٧٧.

[2] المصدر نفسه، الخطبة: ١٧٧.

[3] هو أبو الهيثم بن التَّيِّهان، واسمه مالك واسم أبيه مالك أيضاً ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصاري أحد النقباء ليلة: العقبة.

للجهاد فأجابوا ، ووثقوا بالقائد فاتبعُوهُ))[٤].

وليس هذا بكثيرٍ على عليٍّ عليه السلام وإخوانه الذين ذكرهم فقد جاء في حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم ، عن أبي سعيدٍ الخدري قال : ((كنّا نمشي مع النبي ـ ﷺ ـ فانقطع شسع نعله ، فتناولها عليٌّ يصلحها ثمّ مشى فقال : (يا أيها الناس إنَّ فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله) قال أبو سعيد فخرجتُ فبشرته بما قال رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يكترث به فرحاً ، كأنه قد سمعهُ))[٥].

وجاء أيضاً عن عكرمة عن ابن عباس أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ((من سرّه أنْ يحيا حياتي ، ويموت مماتي ، ويسكن جنة عدن غرسها ربّي ؛ فليوال علياً من بعدي وليوالِ وليَّهُ ، وليقتدِ بالأئمة من بعدي فإنهم عترتي خلقوا من طينتي ، وزقوا فهماً وعلماً. وويلٌ للمكذبين بفضلهم من أمتي ، القاطعين منهم صلتي ، لا أنالهم الله شفاعتي))[١].

ولعلَّ هذا العلم الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي حدا بالقائلين بعدم إمكانية التفسير إلى القول باختصاص العترة بتفسير القرآن الكريم دون غيرهم وقد رأينا أنّ هذا المعنى لا يستقيم لأصحاب هذا الاتجاه من خلال ما أوردناه من أقوال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. أمّا ما أوردوه من أحاديث عن أهل البيت أو الصحابة فيمكن مناقشته بما يأتي : ـ

إنّ قولهم أنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أفضل الراسخين وان الله تعالى وتبارك قد علم نبيّه التنزيل والتأويل وأنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأوصياؤه من بعده يعلمون هذا التنزيل والتأويل و ما في القرآن الكريم من خاصّه وعامّهِ ، ومحكمه ومتشابهه ، وناسخه و منسوخه ...

فهذا كلّه صحيح ولكن المراد من هذا القول هو علم المعصوم ومعرفته بالتفسير أو غيره فيما يتعلّق بالقرآن الكريم أي المراد علم الكتاب كلّه إذ ليس عند أحدٍ سواهم عليهم السلام علم الكتاب كلّه قطعاً وواقعاً.

فعن سويد الصيرفي قال : ((كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزّاز وداود بن كثير في مجلس أبي عبد الله ... فلما أخذ مجلسهُ قال : يا عجباً لأقوامٍ يزعمون أنّا نعلمُ الغيب ، مايعلم الغيب الاّ الله عزّ و جلَّ ... قال سدير : فلما أنْ قام من مجلسه وصار في منزله دخلتُ أنا وأبو بصير ومُيسَّرٌ وقلنا

---

[٤] نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٣.

[٥] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم احمد بن عبدالله الأصفهاني (ت: ٤٣٠هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م، ج١ ص٦٧.

[١] حلية الأولياء : ١ / ٨٦.

له : جعلنا فداك ... نحن نعلم أنّك تعلمُ علماً كثيراً ولا ننْسُبُكَ إلى علم الغيب. قال : فقال : يا سدير : ألم تقرأ القرآن ؟ قلتُ : بلى ، قال : فهل وجْدتَ فيما قرأت من كتاب الله عزّ و جلَّ : ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[٢] قال : جُعلتُ فداك قدْ قرأته ، قال : فهل عرفت الرجل ؟ وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب ؟! قال : قلتُ : أخبرني به ؟ قال : قدرُ قطرةٍ من الماء في البحر الأخضر فما يكون ذلك من علم الكتاب ؟! قال : قلتُ جعلتُ فداك ما أقلَّ هذا ، فقال : يا سدير : ما أكثر هذا ؛ أنْ ينسبه الله عزَّ وجلَّ الى العلم الذي أخبرُكَ به. يا سديرُ : فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزَّ و جلَّ أيضاً : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾[٣] . قال قلتُ : قد قرأتُه جعلتُ فداك. قال : أفمن عنده علمُ الكتاب كُلُّهُ أفهم أم منْ عنده علمُ الكتاب بعضُهُ ؟ قلتُ : لا ، بل من علمُ الكتاب كلُّه ، قال : فأومأ بيده الى صدره وقال : علمُ الكتاب والله كُلُّهُ عندنا عِلمُ الكتاب والله كُلُّهُ عندنا))[٤].

أمّا قولهم عليهم السلام وليس شيءٌ أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن الكريم وذلك لانَّ القرآن فيه ظاهرٌ يمكن أنْ يناله عامّة الناس ممن لهم أدنى معرفة في اللغة التي نزل فيها القرآن الكريم والذي خاطبهم بها على وفق فن القول لديهم ، وفيه باطن عميقٌ أو بطن عميق إلى سبعة أبطن ، ففي الحديث : ((إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً الى سبعة أبطن))[٥].

فهذه الأبطن العميقة وهذه المعارف العالية بكل ما تحتويه من مراتب ودلالات لا يمكن أنْ يصلها كل من هبَّ ودبَّ ، فالقرآن بكل ما فيه ﴿ كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾[١]. وهذا هو معنى قول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : ((إنّ الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه ، وحجته في أرضه وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا ، لا نفارقه ولا يفارقنا))[٢].

فغيرهم عليهم السلام لا يمكن أنْ يعرف كل تنزيل القرآن وتأويله بجميع مراتبه ؛ لانّ هذا العلم مخصوص برسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وبالعترة الطاهرة عليهم السلام لانَّ

---

[٢] النمل: ٤٠.
[٣] الرعد: ٤٣.
[٤] الكافي: ١ / ١٥٢ - ١٥٣.
[٥] ينظر: تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ط١، دار الجوادين، دمشق، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م، ج١ ص٢٠.
[١] الواقعة: ٧٨ - ٧٩.
[٢] الكافي: ١ / ١١٢.

علمهم من علم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد أطلعه ربه عزَّ و جلّ على ما يشاء من العلم الذي يقضيه ويمضيه مما غاب عن غيرهم.

فعن سدير الصيرفي قال: ((سمعتُ حُمْران بن أعين يسأل أبا جعفر ... أرأيت قوله جلَّ ذكره: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾[٣] فقال ابو جعفر عليه السلام: ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾[٤]. وكان والله محمد ممن ارتضاه، وأمّا قوله ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ فإنَّ الله عزَّ و جلَّ عالمٌ بما غاب عن خلقه فيما يقْدر من شيءٍ، ويقضِه في علمه قبل أنْ يخلقه، وقبل أنْ يقضِه الى الملائكة، فذلك يا حُمْران، علمٌ موقوفٌ عنده، إليه فيه المشيئة، فيقضيه إذا أراد، ويبدو له فيه فلا يمضيه، فأمّا العلم الذي يقدِّرُهُ الله عزَّ وجلَّ فيقضيه ويمضيه فهو العلم الذي انتهى الى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلَّم ـ ثمَّ إلينا))[٥].

وهم عليهم السلام يؤكدون هذا المعنى ـ كون علمهم علم النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لتنبيه الأمة ولقطع الطريق على منْ يذهب إلى أكثر من هذا المعنى في حقهم، فقد بيّنوا عليهم السلام لأصحابهم ما هم وما حقيقتهم.

فعن سدير الصيرفي قال: ((قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: إنَّ قوماً يزعمون أنكم آلهة، يتلون بذلك علينا قرآناً: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾[٦]. فقال: يا سدير سمعي وبصري وبشري ولحمي ودمي وشعري من هؤلاء براء وبرئ الله منهم، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة الاّ وهو ساخطٌ عليهم، قال: قلتُ: وعندنا قومٌ يزعمون أنكم رسلٌ يقرؤون علينا بذلك قرآناً: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[٧] فقال: يا سدير سمعي وبَصَري وشَعْري ولحمي ودمي من هؤلاءِ براءٌ وبرئَ الله منهم ورسوله، ما هؤلاءِ على ديني و لا على دين آبائي والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلاّ وهو ساخطٌ عليهم. قال: قلتٌ: فما أنتم ؟ قال نحن خزان علم الله، نحن تراجمة أمر الله، نحن قومٌ معصومون، أمر الله تبارك وتعالى بطاعتنا ونهى عن معصيتنا، نحن

[٣] الجن: ٢٦.
[٤] الجن: ٢٧.
[٥] الكافي: ١ / ١٥٢.
[٦] الزخرف: ٨٤.
[٧] المؤمنون: ٥١.

الحجَّة البالغة على منْ دون السماء وفوق الأرض))[٨].

---

(٨) الكافي: ١ / ١٦١.

المبحث الثالث
عليّ ـ عليه السلام ـ عنده علم الكتاب

أما استدلالهم بأنّ الله عزَّ و جلَّ لا يجعل حجَّة في أرضه يسأل عن شيءٍ فيقول لا أدري. فهذا لا يعني أنْ التفسير موقوف عليهم وليس لأحد من هذه الأمة انْ يفقه شيئاً من كتاب الله عزَّ و جلَّ حتى في ظواهره وإنما المقصود كما قلنا سابقاً هو معرفتهم بجميع ما يحويه القرآن من الظاهر والباطن وهذا هو ما يسمّى في أقوالهم عليهم السلام بجميع القرآن. قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: ((ما يستطيع أحد أنْ يدعي أنَّ عنده القرآن كلَّه ظاهره وباطنه غير الأوصياء))[1].

فالباطن لا يمكن معرفته للعامة الاّ من خلال الأوصياء من آل محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنهم أهل القرآن وأهل الذكر فلا يرغب عنهم ولا عن مسألتهم في معرفة ذلك. لانّ: ((في كل سورة منه بحار من المعارف وتتجلى من كل آية منه أنوار من الحقائق، وكيف لا يكون كذلك، وقائله لانهاية لعلمه وكماله، ولا حدَّ لعظمته وجلاله ...))[2].

ولكن هذا لا يعني أنَّ عامة الناس الذين خاطبهم القرآن الكريم على وفق فن القول لديهم وما اعتادوهُ في حواراتهم وأساليب كلامهم أنهم لا يستطيعون فهم شيءٍ منه: ((إنه لا يجوز أنْ يكون في كلام الله تعالى وكلام نبيه تناقض وتضاد. وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[3] وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[4] وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾[5] وقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[6] وقال: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[7] فكيف يجوز أنْ يصفه بأنه عربيٌّ مبين، وأنه بلسان قومه، وأنه بيان للناس ولا يفهم بظاهره شيء ؟ وهل ذلك الاّ وصف له باللغز والمعمى الذي لا يفهم المراد به الاّ بعد تفسيره وبيانه ؟ وذلك منزّه عن القرآن وقد مدح الله أقواماً على استخراج معاني القرآن فقال: ﴿ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ

---

(1) الكافي: ١ ١٣٦.
(2) مواهب الرحمن: ١ / ١٣٦.
(3) الزخرف: ٣.
(4) الشعراء: ١٩٥.
(5) إبراهيم: ٤.
(6) النحل: ٨٩.
(7) الأنعام: ٣٨.

مِنْهُمْ ﴾[٨] و قال في قومٍ يذمّهم لم يتدبّروا القرآن ولم يتفكروا في معانيه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[٩] وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم: (إني مخلفٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي) فبيّن أنّ الكتاب حجة، كما العترة حجة. وكيف يكون حجة ما لا يفهم به شيء ؟ روي عنه عليه السلام أنه قال: (إذا جاءكم عني حديث، فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط). وروي مثل ذلك عن أئمتنا عليهم السلام، وكيف يمكن العرض على كتاب الله، وهو لا يفهم به شيء ؟))[١٠].

وهذا لا يعني أنَّ التفسير موقوف على العترة وليس لأحد من هذه الأمّة أنْ يفقه شيئاً من كتاب الله عزَّ و جلَّ حتى فيما يتعلّق بظواهره من مفاهيم ودلالات.

و عليه فـ ((إنَّ الآيات التي تدعو الناس عامّة من كافر أو مؤمن ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه إلى تعقّل القرآن و تأمّله والتدبّر فيه وخاصّة قوله تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾[١١]، تدل دلالة واضحة على أنَّ المعارف القرآنية يمكن أنْ ينالها الباحث بالتدبّر و البحث))[١].

أمّا ما يذهب إليه أهل هذا الاتجاه من عدم إمكانية تفسير القرآن الكريم إلاّ عن طريق أهل البيت عليهم السلام بعّدهم أهل القرآن الذين آتاهم الله عزَّ وجلَّ علمه فلا يرغب عنهم ولا عن مسألتهم إلى سواهم ؛ لانّ عدم مسألتهم يوقع في الهوى والانحراف عن جادة الحق والوقوع في التفسير بالرأي المنهي عنه، وليس لأحدٍ أنْ يأخذ بهواه و لا رأيه ولا مقاييسه. فهذا الكلام صحيح لا نقاش فيه ولكن فيما يتعلّق بالإحكام وتفصيلاتها ولعلّ كلَّ ما أوردوه من الأحاديث في هذا المعنى إنما هو فيما يتعلّق بمعرفة تفاصيل الأحكام الشرعية، ومن هذا الحديث الذي نقلوه عن الإمام الصادق عليه السلام: ((إنَّما الوقوف علينا في الحلال والحرام ...))[٢] وهكذا باقي الأحاديث و الأقوال والروايات إنْ لم تكن كلها.

وهذا هو معنى كلامهم سلام الله تعالى عليهم في أقوالهم: تبيان كل شيء، ما تحتاج إليه الأمة، أعلم منكم.علم الكتاب كلّه، علم النبيين، علم الوصيين، علم العلماء، ممن مضوا،

---

(٨) النساء: ٨٣.
(٩) محمد: ٢٤.
(١٠) التبيان: ١ / ٤ ـ ٥.
(١١) النساء: ٨٢.
(١) الميزان: ٣ / ٧٤.
(٢) الكافي: ١ / ١٦٠.

حكم الله الذي لا اختلاف فيه، ما يحتاج إليه ولد آدم، وليس عند أحدٍ شيء إلاّ ما خرج من أهل البيت، تفويض الله تعالى لنبيه والأئمة وإنْ لم يكونوا أنبياء ...

فمعنى كل شيء إنما هو الحلال والحرام والحدود والأحكام ولذلك قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلَّم ـ لا تعلموهم. فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ((قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلَّم ـ... فلا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم ...))[٣].

فهم أعلم بكل شيء بيَّنه القرآن الكريم من الحلال والحرام وكل ما يحتاج إليه الناس في أمور دنياهم وشؤون حياتهم من أحكامٍ و حدود. يقول الإمام الرضا عليه السلام: ((... جهل القوم وخُدِعوا عن آرائهم، إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يقبض نبيه صلى الله وآله وسلم حتى أكمل له الدين، وانزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء، بيّن فيه الحلال والحرام، والحدود والأحكام، وجميع ما يحتاج إليه الناس كملاً، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[٤] ونزل في حجّة الوداع وهي آخر عمره صلى الله وآله وسلم: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾[٥] وأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمضِ صلى الله عليه وآله وسلم حتى بيّن لامته معالم دينهم، وأوضح لهم سبيلهم، وتركهم على قصد سبيل الحقّ، وأقام لهم علياً عليه السلام علما وإماماً، و ما ترك لهم شيئاً يحتاج إليه الأُمّة إلاّ بينهُ، فمن زعم انَّ الله عزَّ وجلَّ لم يكمل دينه فقد ردَّ كتاب الله، ومنْ ردَّ كتاب الله فهو كافرٌ به))[٦].

فمعرفة الحكم الشرعي وما يتعلّق به محصورٌ فيهم عليهم السلام، ولا يدعي أحدٌ أن الله عزَّ وجلَّ أراهُ شيئاً الاّ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ومن فوّضَ إليه من الأوصياء ممن لهم الولاية بعد رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((لا والله ما فوّضَ الله الى أحدٍ من خلقه الاّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والى الأئمة، قال عزّ وجلَّ: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ ﴾[٧]، وهي جاريةٌ في الأوصياء عليهم السلام))[١].

---

[٣] المصدر نفسه: ١ / ١٢٤.
[٤] الأنعام: ٣٨.
[٥] المائدة: ٣.
[٦] الكافي: ١ / ١١٧ ـ ١١٨.
[٧] النساء: ١٠٥.
[١] الكافي: ١ / ١٦٠.

وخير شاهدٍ على ذلك ما دار بين الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام وابن عباس في معرفة حكم الله عزَّ و جلَّ والحدّ الذي فرضه تعالى فيما يحدِثُه في خلقه. قال أبو جعفر عليه السلام: ((... زعمَّ ابن عباس أنه من الذين قالوا ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾[٢] فقلتُ له: هل رأيت الملائكة يابن عباس تخبرك بولايتها لك في الدنيا والآخرة، مع الأمن من الخوف والحزن، قال: فقال: إنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٣] وقد دخل في هذا جميع الأمة ... ثمَّ قلت: صدقت يا ابن عباس أنشدكَ الله هل في حكم الله جلَّ ذكره اختلاف ؟ قال: فقال: لا، فقلتُ: ما تقول في رجلٍ ضرب رجلٌ أصابعه بالسيف حتى سقطت، ثمَّ ذهب واتى رجلٌ آخر فأطار كفَّه، فأتي به إليك وأنت قاضٍ، كيف أنت صانع ؟ قال اقول لهذا القاطع: أعطِهِ دِيَّةَ كفِّهِ، وأقول لهذا المقطوع: صالحه على ما شئت، وأبعث به إلى ذوي عدْلٍ، قلتُ: جاء الاختلاف في حكم الله عزَّ ذكره، ونقضتَ القول الأول، أبى الله عز ذكره انْ يحدث في خلقه شيئاً من الحدود وليس تفسيره في الأرض، اقطع قاطع الكفِّ أصلاً ثُمَّ اعطيه ديَّةَ الأصابع، هكذا حكم الله ليلةَ ينزل فيها أمرهُ، إنْ جحدتها بعدما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأدخلك الله النار، كما أعمى بصرك يوم جحدتها على ابن أبي طالب ... فقال ابن عباس: ما اختلفنا في شيءٍ فحكمُهُ الى الله، فقلتُ له فهل حكم الله في حكمٍ من حكمه بأمرين ؟ قال: لا: فقلت: هاهنا هلكت وأهلكت ...))[٤].

وعليه فمن يريد أنْ يبيّن حكم الله عزّ و جلّ لابد له من أنْ يكون مسّدداً في تبليغ أحكام الله تعالى على نحو القطع واليقين. وهذا أمرٌ لا يكون ولا يتحقق بمعزلٍ عن مقام فهمهم وادراكهم لمعارف القرآن الكريم، لانهم عليهم السلام عدِل القرآن والثقل الأصغر الذي لا يفترق عن الثقل الأكبر كتاب الله الذي هو تبيان لكل شيء. وقد امرنا نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأخذ بهما معاً وليس بواحدٍ منهما دون الآخر، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾[٥]، وهذا تفويض من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعترته اهل البيت عليهم السلام.

(٢) فصّلت: ٣٠.
(٣) الحجرات: ١٠.
(٤) الكافي: ١ / ١٤٦.
(٥) الحشر: ٧.

لانّ : ((الله عزَّ وجلَّ أدب نبيّه فأحسن أدبه ، فلما أكمل له الأدب ، قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٦] ، ثمَّ فوض إليه أمر الدين والامة ليسوس عباده ، فقال عزَّ و جلَّ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ ... الآية ﴾ وانَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان مسدّداً موفقاً مؤيداً بروح القدس ، لا يزلُّ ولا يُخطيء في شيءٍ مما يسوس به الخلق ، فتأدب بآداب الله ...))[٧].

وليس هذا بكثيرٍ عليهم لانَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورثهم عِلَمَ الكتاب كلّه ظاهره وباطنه. فقد روي عن الإمام أبي جعفرٍ الباقر في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾[٨] ، أنَّهُ قال : ((إيانا عنى ، وعليٌّ أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم))[١].

ومثله عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال : ((... عندنا والله عِلمُ الكتاب كلِّهِ))[٢] .

وهم وإنْ لم يكونوا أنبياء الا أنهم هم العلماء حقا لأنهم إنما أخذوا علمهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعملوا به ولم يضيعوه وكانوا يشيرون إلى هذا المعنى كي تفهم الأمُه دورهم ومقام معرفتهم للأحكام الشرعية لتهتدي إلى الله تعالى بإذنه وتنال سبل الحق لديه ، بما أكرمهم به من كرامة الذكر وما آتاهم وخصّهم به من العلم بالكتاب كلّه.

يقول الإمام أبو جعفر عليه السلام : ((إنما الوقوف علينا في الحلال والحرام فأمّا النبوة فلا))[٣]. وعن بُريد بن معاوية ، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال قلت له : ما منزلتكم ؟ ومن تشبهون ممن مضى ؟ قال : ((صاحب موسى وذي القرنين ، كانا عالمين ولم يكونا نبيّين))[٤]. وعن الإمام ابي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال : ((الأئمة بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ أنهم ليسوا بأنبياء ولا يحلُّ لهم من النساء ما يحلُّ للنبي صلى الله عليه وآله

---

[٦] القلم: ٤.
[٧] الكافي: ١ / ١٥٨ ـ ١٥٩.
[٨] الرعد: ٤٣.

[١] الكافي: ١ / ١٣٦.
[٢] المصدر نفسه: ١ / ١٣٦.
[٣] المصدر نفسه: ١ / ١٦٠.
[٤] المصدر نفسه: ١ / ١٦١.

وسلم فأمَّا ماخلا ذلك فهم فيه بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم))(٥).

واهل البيت إنما لم يكتفوا برواية واحدةٍ أو روايتين في المعنى ـ أي التأكيد على أخذ الأحكام الشرعية عنهم ـ لانهم كانوا يرون كثرة المدارس أو الآراء الفقهية وتعددها واختلاف مناهجها في معرفة الأحكام الشرعية من القرآن دون الرجوع للعترة التي ألزم حديث الثقلين الامة بالرجوع الى هذين الثقلين الثقل الأكبر كتاب الله عزَّ و جلَّ والثقل الأصغر وهم العترة الطاهرة سلام الله عليهم لاسيَّما في عصر الإمامين الباقرين عليهما السلام، وانْ كانت بوادر هذا الاتجاه قد نمتْ منذ عصر الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

فعن صالح بن ميثم، عن أبيه قال: ((بينما أنا في السوق إذ أتاني أصبغ بن نباته فقال: ويحكَ يا ميثم لقد سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حديثاً صعباً شديداً فأيّنا نكون كذلك ؟ قلت: وما هو ؟ قال: سمعته يقول: إنّ حديثنا أهل البيت صعب مستصعب لا يحتمله الاّ ملك مقرّب، أو نبيٌّ مرسل، أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان، فقمتُ من فورتي فأتيتُ علياً عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين حديث أخبرني به الأصبغُ عنك قد ضقتُ به ذرعاً قال: وما هو ؟ فأخبرته قال: فتبسَّم ثمَّ قال: اجلس يا ميثم، أو كُلّ علمٍ يحتمله عالم ؟ إنّ الله تعالى قال لملائكته: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(٦). فهل رأيت الملائكة احتملوا العلم ؟ قال: قلتُ: هذه والله اعظمُ من ذلك. قال: والأُخرى أنَّ موسى عليه السلام أنزل الله عزَّ و جلَّ عليه التوراة فَظَنَّ أنْ لا أحد أعلم منه فأخبره الله عزَّ و جلَّ أنّ في خلقي من هو اعلم منك، وذاك إذ خاف على نبيّه العُجْب، قال: فدعا ربَّه أنْ يرشده الى العالم، قال: فجمع الله بينه وبين الخضر فخرق السفينة فلم يحتمل ذلك موسى، وقتل الغلام فلم يحتمله، وأقام الجدار فلم يحتمله، وأمَّا المؤمنون فإنَّ نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم أخذ يوم غدير خُمٍّ بيدي فقال: اللهم من كنتُ مولاه فإنَّ علياً مولاه، فهل رأيت احتملوا ذلك إلاّ منْ عصمه الله منهم ؟ فابشروا ثمَّ أبشروا فإنّ الله تعالى قد خصّكم بما لم يخصّ به الملائكة والنبيين والمرسلين فيما احتملتم من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلمه))(١) .

---

(٥) المصدر نفسه: ١ / ١٦١.
(٦) البقرة: ٣٠.

(١) بحار الأنوار: ٢ / ٣٥٩.

وقد بلغ عزل العترة عن الأمَّة الذروة في حياة الإمامين الباقرين عليها السلام واستشرت مسالة الرأي في التفسير والقياس وغيره في فقه الأحكام وكان من جرّاء ابتعاد الأمة عن أئمتها أنْ تشعّبت بهم الأمور وتعددت السُبُل وتركت الأخذ عمن أخذوا علمهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل وصل الأمر ببعض من جهلوا أنْ رأوا أنفسهم على علمٍ وانّ العترة الطاهرة عليهم السلام على جهلٍ وضلال.

ولذلك راح أئمة أهل البيت يتصدون لهذا التيار الذي استشرى في الأمة بكل ما أُتوا من علمٍ وطاقة لا يألون في ذلك جهداً و لا علماً ليخرجوا الأمة من ضلال التقليد والقياس ومزالق الرأي .

فقد سأل رجل من أهل الكوفة الإمام الباقر عليه السلام عن قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ((سلوني عمّا شئتم فلا تسألوني عن شيءٍ الا أنبأتكم به. قال: إنه ليس أحدٌ عنده علمُ شيءٍ الاّ خرج من عند أمير المؤمنين عليه السلام، فَليذهب الناس حيث شاؤوا، فوالله ليس الأمر الاّ من هاهنا، وأشار بيده إلي بيته))[٢] وقال: ((ليس عند أحدٍ من الناس حقٌ ولا صوابٌ، ولا أحد من الناس يقضي بقضاءٍ حق، الاّ ما خرج منّا أهل البيت، وإذا تشعَّبت بهم الأمور كان الخطأ منهم والصواب من عليٍّ عليه السلام))[٣] . وقال: ((عجباً للناس أنهم أخذوا علمهم كلّه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعلموا به واهتدوا، ويرونَ أنّ أهل بيته لم يأخذوا علمه، ونحن أهل بيته وذريتُهُ في منازلنا نزل الوحي، ومن عندنا خرج العلم إليهم، أفيرون أنهم علموا واهتدوا وجهلنا نحن وضللنا، إنّ هذا لمحالٌ))[٤].

فكل ما يحتاج الناس إليه من الحدود والأحكام منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام الى أنْ يرث الله عزَّ و جلَّ الأرض ومن عليها فهو عند آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم وهو من علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مضافاً الى علم الكتاب كلّه.

فعن الإمام أبي جعفرٍ الباقر عليه السلام قال: ((إنَّ الحسين بن علي عليهما السلام لّما

---

[٢] الكافي: ١ / ٢٥٠ - ٢٥١.
[٣] المصدر نفسه: ١ / ٢٥٠.
[٤] المصدر نفسه: ١ / ٢٥٠.

حضره ما حضره ، دعا ابنته الكبرى فاطمة بنت الحسين عليهما السلام فدفع إليها كتاباً ملفوفاً ووصيَّةً ظاهرةً ، وكان علي بن الحسين عليه السلام مبطوناً معهم لا يرون إلاّ أنه لما به ، فدفعت فاطمةُ الكتاب الى علي بن الحسين عليه السلام ثمَّ صار والله ذلك الكتاب إلينا ... فيه والله ما يحتاج إليه ولدُ آدم منذ خلق الله آدم إلى أنْ تفنى الدُّنيا ، والله إنَّ فيه الحدود ، حتى أنَّ فيه أرْشَ الخَدْشِ))[٥] .

ففهم القرآن الكريم كل القرآن لاسيما معرفة الأحكام الشرعية لا يمكن أن تتمّ من دون الرجوع إلى العترة الطاهرة تحقيقاً لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الثقلين : (إني تارك فيكم الثقلين ...) لانّ الثقل الأصغر وهم العترة قد زوّدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكل ما يجعلهم اهلاً ومرجعاً في مقام فهم القرآن والوصول الى ذلك كي لا تضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وآله وسلم أبداً .

ومن هذه الطرق التي ليست بأيدي غيرهم هو ما ورثوه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من علم أملاه على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب وخطّهُ بيمنه مما يحتاج إليه الناس من مسائل الحلال والحرام ، وما أخذوه عنه من علم النبيين والوصيين ، وعلم ما هو كائن إلى أنْ تقوم الساعة .

فعن أبي بصير قال : قال الصادق عليه السلام : ((... وإنّ عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة ؟ قال : صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإملائه من فلق فيه وخطّ عليٍّ بيمينه ، فيها كلَّ حلال وحرام وكل شيءٍ يحتاج الناس إليه حتى الأرْشُ في الخدْش ... قلتُ : هذا والله العلم ، قال : إنه لعلمٌ وليس بذلك ... وعندنا الجفر و ما يدريهم ما الجفر ؟ قال : قلت : وما الجفر ؟ قال : وعاءٌ من أدم فيه علم النبيّين والوصيين ، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل ... قلت : إن هذا هو العلم ، قال : إنه لعلم وليس بذاك ... وإن عندنا لمصحف فاطمة به مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد ... قلت : هذا والله العلم قال : إنه لعلم وليس بذاك ... إن عندنا علم ما كان وعلم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة... قلت : جعلت فداك فأي شيء العلم ؟ قال : ما يحدث بالليل والنهار ، الأمر من بعد

[٥] المصدر نفسه: ١ / ١٨٤.

الأمر، والشيء بعد الشيء ، إلى يوم القيامة))[1]. وعنه عليه السلام : ((إن عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس ، وإن الناس ليحتاجون إلينا ، وإنَّ عندنا كتابا إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام ، صحيفة فيها كل حلال وحرام ، وإنكم لتأتونا بالامر فنعرف إذا أخذتم به ونعرف إذا تركتموه))[2].

ومن هنا يتبيّن لنا أن كل ما ذكروه من أحاديث واستشهدوا به من اقوال في عدم الحاجة الى تفسير القرآن أو عدم امكانية تفسيره ، والاقتصار على ما ورد عن المعصوم عليه السلام إنما هو من باب عدم جواز استنباط الاحكام النظرية من ظواهر القرآن ، الاّ بعد معرفة تفسيرها من الأئمة عليهم السلام ، ووجوب التوقّف والاحتياط في القضاء والفتوى ، والعمل في كل مسألة نظرية لم يعلم حكمها بنصٍ منهم عليهم السلام ، لانهم هم الذين يعرفون الحلال والحرام ، وهم الحجّة لله عزّ و جلّ على خلقه.

ويمكن أنْ ترى هذا بوضوح في الكتب والمصادر التي تناولت مسائل الشريعة في الحلال والحرام ، كما هي الحال في كتاب وسائل الشيعة على سبيل المثال لا الحصر، إذ أورد الحرُّ العاملي في هذا الكتاب كل ما ذكره أصحاب هذا الاتجاه من أحاديث في متن البحث وزيادة [3] .

وكذلك هي الحال عند من يرى عدم إمكانية التفسير الاّ بالرجوع إلى أخبار الصحابة رضوان الله عليهم الذين شاهدوا تنزيله وأدّوا إلينا من السُّنن ما يكون بياناً لكتاب الله تعالى وبالتالي حصر معرفة آيات الكتاب العزيز وفهمها بالسلف الصالح من الصحابة وما نُقل عنهم.

وقد رفض كثير من علماء الأمة هذا الاتجاه بل عدّه الغزالي حجاباً من الحُجب التي تمنع عن فهم معاني القرآن إذ يقول : ((... أنْ يكون قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنَّه لا معنى لكلمات القرآن إلاّ ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وأنّ ما وراء ذلك تفسير بالرأي وانّ من فسّر القرآن برأيه فقد تبوّأ مقعده من النار فهذا أيضاً من الحجب العظيمة))[1] .

---

[1] الكافي: ١ / ١٤١ ـ ١٤٢.
[2] المصدر نفسه: ١ / ١٤٣.
[3] ينظر: وسائل الشيعة: ٢٧ / ١٥٥ ـ ٢٠٥.

[1] إحياء علوم الدين: ١ / ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

ومن ثمَّ فإنَّ حصر معرفة وفهم آيات الكتاب العزيز بالسلف الصالح من الصحابة وأقوالهم لاستبعاد أنْ تختفي عليهم معاني الكتاب العزيز أمرٌ غير ميسور لأنّ الصحابة أنفسهم قد اختلفوا في فهم وتفسير آيات الكتاب العزيز وقد رتبوا على اختلافهم في الفهم آثارهُ في الواقع العملي والسلوكي لهم .

وحصر المعرفة بهذا الطريق : ((... وهو الاقتصار على ما نقل من مفسِّري صدر الإسلام من الصحابة والتابعين في معاني الآيات القرآنية يوجب توقف العلم في سيره ، وبطلان البحث في أثره كما هو مشهود في ما بأيدينا من كلمات الأوائل والكتب المؤلفة في التفسير في القرون الأولى من الإسلام ، ولم ينقل منهم في التفسير الاّ معانٍ ساذجة خالية عن تعمّق البحث وتدقيق النظر فأين ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[٢] ، من دقائق المعارف في القرآن ؟ وأمَّا استبعاد أنْ يختفي عليهم معاني القرآن مع ما هم عليه من الفهم والجدِّ والاجتهاد فيبطله نفس الخلاف الواقع بينهم في معاني كثيرة من الآيات والتناقض الواقع في الكلمات المنقولة عنهم إذ لا يتصور اختلاف ولا تناقض إلاّ مع خفاء الحق واختلاط طريقه بغيره))[٣].

---

[٢] النحل ٨٩.

[٣] الميزان: ٣ / ٧٦.